مجلة عصور الجديدة- فصلية مصنفة ج- المجلد 10- العدد 4 (ديسمبر) 1442هـ/2020م
EISSN 2600-6324 ISSN 2170-1636 ردمد
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/178

منهج الشيخ المهدي البوعبدلي في التأصيل التاريخي للتيار السلفي بالجزائر.

The Method of Sheikh Mahdi Al-Bouabdli in the Historical Rooting of the Salafi Movement in Algeria.

اسم ولقب المؤلف المرسل للمقال: محمد الكبير فقيقي- Figuigui Mohamed El Kebir صص413-426
الدرجة والعنوان المهني: أستاذ محاضر أ- كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة طاهري محمد- بشار- الجزائر /البريد الإلكتروني: figuiguimohamed@hotmail.com

تاريخ استقبال المقال:2020/06/13 تاريخ المراجعة:2020/08/30 تاريخ القبول:2020/09/28

الملخص: تعالج هذه الدراسة منهج المؤرخ الجزائري المهدي البوعبدلي (1907- 1992) في طرحه لموضوع الحركة السلفية بالجزائر، وتتبع مراحل ظهورها وتطورها منذ القرن الرابع عشر الميلادي؛ وإلى غاية نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين؛ حيث يعتبر أول من طرق هذا الموضوع، وأسس للدراسة المنوطة به، ووقف عند الإرهاصات التاريخية الأولى لميلاد تلك الحركة بالجزائر من خلال دراسته المعنونة بـ"عبد الرحمن الأخضري وأطوار السلفية في الجزائر" المنشورة في مجلة الأصالة، التي كانت تصدرها وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية الجزائرية، في العدد رقم 53 من عام 1978م.

يرى البوعبدلي أن الحركة السلفية في الجزائر ظهرت كرد فعل مصحح لما طرأ على التصوف الإسلامي بالمغرب الأوسط من انحرافات وبدع، ولذلك اشتد الخلاف بين المصلحين السلفيين والمدافعين عن التصوف.

لقد التزم البوعبدلي بإدراج تلك الحركة السلفية ضمن نسقها التاريخي، ووفق خصوصيات الثقافة الإسلامية للمغرب الإسلامي، ومن خصوصياتها أنها انبثقت من الوسط الصوفي السّني الذي يستمد أسسه من الفقه المالكي والعقيدة الأشعرية، ولكنها تحولت منذ الفترة الحديثة إلى حركة مناهضة للثقافة الصوفية بسبب تأثرها بالسلفية المشرقية خصوصا رافدها الوهابي.

لقد أثبتت التجربة التاريخية عدم جدوى محاولات استئصال الفكر الصوفي بالمغرب الأوسط لأن السلفية الجزائرية تواءمت مع جوهر التصوف طيلة قرون.

EISSN 2600-6324 ISSN 2170-1636 ردمد
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/178

أصبح من الضروري توخي ظاهرة المزاوجة بين السلفية والصوفية، بالنظر إلى أن كبار رواد الإصلاح السلفي في المغرب الأوسط جسدوا تلك الازدواجية في أقوالهم ومواقفهم، من أمثال عبد الرحمن الأخضري وعبد الكريم الفكون القسنطيني وأبي راس الناصري المعسكري.

الكلمات المفتاحية: المهدي البوعبدلي؛ السلفية؛ التصوّف؛ الإصلاح؛ الجزائر؛ المغرب الأوسط؛ البدع؛ النوازل؛ المتصوفة؛ الفقهاء.

Abstract: *This study deals with the approach of the Algerian historian Al-Mahdi Al-Bouabdelli (1907-1992) in his presentation of the topic of the Salafi movement in Algeria, and follows the stages of its emergence and development from the fourteenth century to the end of the nineteenth century and the beginning of the twentieth century, as it is considered the first of the methods of this topic and the foundations of the study Entrusted to him, and he stopped at the first historical evidence of the birth of that movement in Algeria through his study entitled: "Abd al-Rahman al-Akhdari and the phases of Salafism in Algeria." It was published in Al-Asala magazine, which was issued by the Algerian Ministry of Original Education and Religious Affairs, No. 53 of 1978.*

Al-Bouabdalli believes that the Salafi movement in Algeria emerged as a corrective reaction to the deviations and heresies in the Islamic Sufism in the Maghreb. Therefore, the dispute between the Salafi reformers and the advocates of Sufism intensified.

Al-Bouabdalli was committed to including this Salafi movement within its historical pattern, and according to the peculiarities of Islamic culture in the Islamic Maghreb.

Parmi ses particularités, il est issu du milieu soufi sunnite, qui découle de la jurisprudence maliki et de la foi ash'ari, mais depuis la période moderne, il s'est transformé en un mouvement anti-soufi en raison de son influence sur le salafisme oriental, en particulier sur son affluent wahhabite

Historical experience has proven the futility of attempts to eradicate Sufi thought in the Maghreb because Algerian Salafism has adapted to the essence of Sufism for centuries.

It has become necessary to envisage the phenomenon of intermarriage between Salafism and Sufism, given that the leading pioneers of Salafi reform in the Maghreb embodied that duality in their sayings and positions, such as "Abd al-Rahman al-Akhdari", Abd al-Karim al-Fakoun al-Qusentini "and" Abu Ras al-Nasiri al-Ma`skari".

Keywords: Mahdi Al-Bouabdali; Salafism; Sufism; Islah; Algeria; the Central Maghreb; Bida; Al-Nawazil; Sufis; Juri

المقدمة: انصرفت جهود الباحثين الجزائريين في حقل تاريخ الفكر والمذاهب الإسلامية نحو دراسة جوانب من تاريخ حركة الإصلاح الديني المعاصرة باعتبارها رد فعل طبيعي على السياسة الاستعمارية في تقويض وطمس مقومات الهوية الوطنية الجزائرية، دون أن تتوجه جهودهم في الغالب نحو التأصيل التاريخي لتلك الحركة، ومحاولة سبر أغوارها كتيار متجذر ومترسخ في المجتمع الجزائري منذ العصور الإسلامية الأولى.

يبدو أن التيار السلفي أو ما يعرف بحركة العودة إلى الأصول الدينية الأولى، ونبذ ما علق بالدين من آثار الجمود والتخلف ظلت تقاوم مظاهر الإنحراف عن الدين، ولعل ظهورها يكون أكثر تجليا حينما يتهدد المجتمع الجزائري خطر داخلي أو خارجي يمس الجوانب العقدية أو الأصول الإسلامية، لذلك ظهرت حركة سلفية جزائرية تستمد أفكارها من الفقه المالكي والعقيدة الأشعرية والتصوف السني.

لقد كان المؤرخ الجزائري المهدي البوعبدلي (1907-1992) في حدود اطلاعنا أول من طرق هذا الموضوع، وأسس للدراسة المنوطة به من خلال دراسته المعنونة بـ"عبد الرحمن الأخضري وأطوار السلفية في الجزائر"، والمنشورة في مجلة الأصالة (مجلة ثقافية تصدرها وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية الجزائرية)، العدد 53، سنة 1978م، صص21-35.

تمكن الشيخ البوعبدلي من وضع اللبنات الأولى لظهور الحركة السلفية بالجزائر، وتتبع مراحل ظهورها وتوسعها منذ القرن الثامن الهجري (14م)، إلى نهاية القرن التاسع عشر الميلادي، أي مع ظهور إرهاصات الحركة الإصلاحية الحديثة في الجزائر، والتي أخذت تنفتح على السلفية المشرقية برافديها التقليدي والتنويري.

من خصوصيات السلفية الجزائرية أنها انبثقت من الوسط الصوفي السني ليتحول أحد روافدها في الفترة الراهنة إلى حركة مناهضة ومستأصلة للثقافة الصوفية بسبب تأثره بالسلفية المشرقية، مع أن التجربة التاريخية أثبتت إلى حدّ الآن عدم جدوى مساعي اجتثاث الفكر الصوفي؛ لأن السلفية الجزائرية ظل مشربها صوفيا.

ومن هنا نصل إلى الإشكالية المنوطة بموضوع الدراسة بطرح السؤال الآتي: هل هناك فعلا قطيعة بين التوجهين السلفي والصوفي في الثقافة الإسلامية الجزائرية؟ أم أن التواصل والتقاطع قائم بينهما كما أثبتت التجربة التاريخية السابقة؟

لم ينطلق البوعبدلي من الإشكالية المطروحة بشكل صريح؛ فمن المسلّمات لديه أن التوجّه السلفي خرج من الوسط الصوفي لإصلاح ما اعتراه من انحراف؛ فلم يجعل من التيار السلفي مستأصلا للتصوف كما هو الشأن لدى السلفية الوهابية في المشرق.

ولذلك فإن طرح الشيخ البوعبدلي للسلفية الجزائرية يكرس فكرة التوافق بين التوجهين: السلفي والصوفي، وهذا ما سنسعى لإلقاء أضواء عليه عبر هذه الدراسة.

إن المشكلة التي شغلت بال البوعبدلي في معالجته للموضوع هي ذلك الجدل الكلامي الحاد بين المناصرين للتصوف كعلم، وطريق لتحقيق الاستقامة، والنهوض بالمجتمع وبين المناهضين للتصوف باعتباره محضنا للبدع والانحرافات العقدية والسلوكية عبر العصور.

كل ذلك يكرس جدلية التصوف والسلفية التي تشكل محور هذه الدراسة، وعليه سنعالج موضوع الدراسة على ضوء العناصر التالية: مفهوم السلفية و ظروف ظهورها- نشأة التصوف السلفي بالمغرب الأوسط- دور الشيخ عبد الرحمن الأخضري في تعميم التوجه الجديد- المنعطف الحاسم في تاريخ السلفية الجزائرية الحديثة.

2- مفهوم السلفية و ظروف ظهورها: السلفية كما فسّرها الشيخ البوعبدلي تتلخص فيما أوصى به النبي- صلى الله عليه وسلم- في خطبته المنهجية في حجّة الوداع التي قال فيها: "إني تركت فيكم ما إن استعصمتم به لن تضلّوا أبدا: كتاب الله وسنّتي"[1].

والسلف وفق هذا المفهوم يقصد به الأمر المتقدم عن الخلف، ممثلا في الكتاب والسنّة، وليس الأشخاص الذين تمثلوا هذين المصدرين في الصحابة والتابعين، من أهل القرون الثلاثة الأولى، المشهود لها بالخيرية.

وهكذا تصبح السلفية في منظور البوعبدلي هي العودة إلى مصدري التشريع الأولى: الكتاب والسنّة، لا سيما في حال التنازع والاختلاف، وحين يطرأ أي انحراف أو زيغ لدى الأمة، وبهذا المفهوم تصبح الأمة قادرة على تصحيح الإنحرافات في أي مرحلة تاريخية بالاستناد إلى مصدري التشريع عملا بالإتباع لا بالابتداع.

إن ربط المفهوم بمدى استمساك المسلمين بالنصوص الشرعية يوسع الحقل الدلالي لمفهوم السلفية ليشمل مختلف الفرق الإسلامية، التي تؤصل لمذهبها بالكتاب والسنة وفق قواعد الاستنباط المعروفة.

وهو عكس المفهوم الشائع، الذي يحصر السلفية فيما كان عليه السلف الصالح خلال القرون الثلاثة الأولى المشهود لهم بالخيرية، ومن ذلك أن: "السلفية هي كلمة منسوبة،

ونسبتها إلى السلف الذين يراد بهم جيل الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين إلى القرن الثالث الهجري"[2]، وهم الذين قال فيهم النبي صلى الله عليه وسلم: "خيركم قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم"[3].

إن تحديد مفهوم السلفية على أنها العودة إلى منهج السلف الصالح لا يرفع الغموض عن مضمونها؛ لأن الماضي المُحتذى به سيظل غير محدد؛ فالقرون الثلاثة الأولى المشهود لها بالخيرية حدث فيها من التطورات والتغيرات من تشعب المدارس الفقهية، وتفرق المذاهب السياسية، وجدل الفرق العقدية، ما يجعلنا محتارين إزاء التوجهات المختلفة، وأيها يمثل منهج السلف[4].

وبناءً على ما تقدّم يصبح المفهوم الذي اعتمده الشيخ البوعبدلي هو الأقرب إلى استيعاب مختلف السياقات التي يوظف فيها المصطلح[5].

يستعرض الشيخ البوعبدلي الظروف التي أدت إلى ظهور السلفية في العالم الإسلامي؛ حيث يقول في هذا الصدد: "وعندما انتشر الإسلام، وظهرت المذاهب لمختلف الملل والنحل، وكان من بينها التصوف الذي أسرف بعض أئمته، وتغالوا في الدعوة إلى التحرر من التقاليد وإسقاط التكاليف، وزاد الأمر تعكرا عندما ظهرت لكثير من أئمة التصوف طرق أقبل عليها كثير من العوام؛ فعندئذ ظهر رد فعل الفقهاء الذين ضاقوا ذرعا بهذه التعاليم، خصوصا بعد محاكمة الحسين بن منصور الحلاج الذي كان من دعاة مذهب الحلول، ولذلك اشتدت حملة الفقهاء والمحدثين على التصوف؛ حتى ظُنَّ أنه اختفى للأبد، إذ صار جل المنتسبين إليه يرمون بالزندقة..."[6].

من الواضح أن البوعبدلي ربط ظهور السلفية على الخصوص بتفشي التصوف المنحرف، ولم يهتم بذكر الفرق الأخرى التي تسببت في بلورة التيار السلفي، خصوصا الفرق الكلامية منها، والتي أفضت إلى ظهور نزاع حاد بين الأشاعرة والمنتسبين إلى مذهب السلف من أهل الحديث حول تصدر ما يعرف بأهل السنة والجماعة، ويرجع تجاهل البوعبدلي لهذا النزاع إلى أن هذا النوع من الجدل لم يحظ بحضور قوي على مستوى الغرب الإسلامي[7].

يرى البوعبدلي أن الحملة التي شنّها الفقهاء والمحدّثين على التصوف المنحرف دفعت بعض العلماء الذين جمعوا بين الفقه والتصوف للتصدي إلى تلك الحملة؛ فيذكر منهم الإمام أبي حامد الغزالي، الذي بذل جهدا عظيما خلال القرن الخامس الهجري في تهذيب "علم التصوف"، ساعيا نحو التوفيق بينه وبين علوم السنة.

ويقول البوعبدلي في هذا الصدد: "وبالفعل جعل منه علما إلى جانب ما فيه من العمل، وجعل فيه بنوع خاص طريقا إلى المعرفة اليقينية، وقد تلقى أهل السنة تعاليم الغزالي بالقبول الحسن، ولكن حملة الفقهاء على كتابه لم تتوقف خصوصا فقهاء المغرب العربي والأندلس مما هو مشهور..."[8].

وأثمرت جهود الغزالي في الدفاع عن التصوف بظهور فريق من العلماء انتصروا لموقفه مقابل الفريق المناهض في المشرق كما في المغرب، وهكذا تأسس الجدل بين الفريقين في المشرق، وانتقل إلى المغرب.

3- نشأة التصوف السلفي بالمغرب الأوسط: يجزم الشيخ البوعبدلي بأن السلفية تسربت إلى المغرب الأوسط عن طريق عالم سلفي شهير هو أبو الحسن علي بن عبد الحق الزرويلي (ت719هـ/1319م) الشهير بـ"الصغير" قاضي مدينة فاس في أوائل القرن الثامن الهجري.

اشتهر أبو الحسن الصغير هذا في المغرب بما اشتهر به معاصره أحمد بن تيمية في المشرق، ويلخص البوعبدلي الفرق بينهما في أن أبا الحسن كان فقيها مالكيا، وأهل المغرب كلهم مالكيون بخلاف ابن تيمية فكان حنبليا، كما أن أبا الحسن الزرويلي كان نشاطه السلفي في إطار المذهب السني بخلاف ابن تيمية الذي خرج عن أهل السنة في الكثير من القضايا، خصوصا القول بمنع التوسل بالأنبياء والأولياء، وكان يرى بأن المقصود من شدّ الرحال إلى المدينة المنورة هو الصلاة في مسجدها لا زيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم، وهذا لا يقول به فقيه سني[9].

هنا يعقد الشيخ البوعبدلي مفاصلة بين مرجعية السلفية المغاربية ونظيرتها المشرقية رغم التزامن القائم بينهما، لا سيما فيما يتعلق بمنظّر السلفية المشرقية التقليدية الشيخ ابن تيمية، إذ أن محاربته للعديد من توجهات المتصوفة؛ وبخاصة موقفه من عمدة المتصوفة في المشرق والمغرب أبي الحسن الشاذلي جعلت معظم آرائه منبوذة لدى المغاربة، فضلا على خروجه عن إجماع الجمهور في مسائل عديدة[10].

احتدم الجدل في الأوساط العلمية بالمغرب الأوسط بين مؤيد ومعارض لأفكار أبي الحسن الصغير؛ فانتصر له أعلم أهل عصره الشيخ الحافظ ابن مرزوق الحفيد[11] الذي ردّ على زميله قاسم العقباني التلمساني[12]، الذي ألّف رسالة انتصر فيها لمتصوفة زمانه، وقد كان من جملة أنصار قاسم العقباني بعض أكابر العلماء مثل الشيخ عبد الرحمن الثعالبي

دفين الجزائر، والذي هو من تلامذة الإمام ابن مرزوق المذكور، كما انتصر للعقباني الإمام أبو عبد الله محمد بن يوسف السنوسي[13]، الشهير بتآليفه الغزيرة في "علم التوحيد".

وقد كان مسرح هذه المعارك العلمية كتب "النوازل" كالدرر المكنونة في نوازل مازونة، وفتاوي "أحمد بن يحي الونشريسي" المجموعة في كتابه "المعيار"، وكان واضع هذه القضية على بساط المناقشه أبو فارس عبد العزيز القيرواني[14] تلميذ أبي الحسن الصغير، وشارك فيه بين محبذ ومنكر من الجزائريين عبد الرحمن الوغليسي؛ فقيه بجاية الشهير، وابن مرزوق الحفيد التلمساني، وسعيد العقباني التلمساني وعيسى الغبريني البجائي، والد أحمد الغبريني صاحب كتاب "عنوان الدراية"، كما شارك في هذا السجال من غير الجزائريين أبو إسحاق الشاطبي وأبو سعيد بن لب الأندلسي وأبو بكر الطرطوشي[15].

من جملة المؤلفات المذكورة بصدد السجال القائم نوّه البوعبدلي بتأليف الإمام السنوسي لأنه تعرض فيه لنقض أفكار أبي الحسن الصغير جملة جملة[16]، ولأنه يقرر المسائل المثارة وفق مقتضيات العقيدة الأشعرية؛ التي تشترك مع المتصوفة في العديد من التوجهات العقدية.

لقد كانت المسائل المثارة في الجدل السابق شائكة جدا لفتت أنظار علماء الدين قرونا، ولا زالت تحدث الهزات العنيفة المرة بعد المرة، وكثيرا ما شارك فيها الأجانب، وتداخل فيها المستشرقون طورا[17]، مثل هنري لاووست (Henri Laoust) وميشو بيلير (Michaux Bellaire).

يحدد البوعبدلي المركز العلمي الذي احتضن السلفية بالمغرب الأوسط، وهو قرية "تامقرة" بنواحي بجاية، والتي تحولت إلى مركز انطلاق للمذهب الجديد، خصوصا حينما حلّ بها العالم أحمد زروق الفاسي[18] (846-899هـ/1442-1493م)، والذي أقام بتامقرة في "معهد يحي العبدلي"، وألف فيه معظم كتبه التي ضبط فيها علم التصوف اقتداء بالغزالي؛ فكرس حياته لتجسيد "التصوف السلفي"، وألف كتبه المشهورة مثل "قواعد التصوف"[19] و" أصول الطريقة" و"كتاب البدع"[20].

وتمكن الشيخ أحمد زروق من أن يمارس نفس الدور الذي قام به الغزالي في المشرق؛ من حيث تهذيب التصوف، وتقريبه من الفقه، وإعطائه وجهة سلفية، واستطاع أن يعقد نوعا من التوافق بين الفريقين المتنازعين؛ فجمع بين النزعة الصوفية والتوجه السلفي في سلوكه ومؤلفاته.

EISSN 2600-6324 ISSN 2170-1636 ردمد
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/178

وهكذا كتب لمؤلفات أحمد زروق الخلود، وصارت حجة عند المتصوفين الملتزمين وعلماء الحديث والفقه في آن واحد، وأجمع مترجموه بأنه خاتمة الجامعين بين "الحقيقة والشريعة"، وقد ساعده على أداء مهمته تضلعه في علوم الحديث والتفسير والفقه، ثم استقامته المثالية ونزاهته حتى صار حكما عند جلّ الطوائف[21].

وعلى ذلك أسس الشيخ زروق "مدرسة التصوف السلفي" في الغرب الإسلامي، وسار بعده على نهجه أقطاب السلفية المغاربة، وكان لتلميذه محمد علي الخروبي؛ دفين الجزائر، وأب تلميذه عبد الرحمن الأخضري دور أساسي في نشر مذهبه في المغرب الأوسط، وإذا كان الخروبي اشتهر في الأوساط الخاصة؛ فإن الأخضري عمّم نشر المذهب في الطبقات العامة؛ حيث كان جل معاهد التعليم بالبلاد يلزمون طلبتهم بحفظ منظومة الأخضري المشهورة بـ"القدسية" عن ظاهر قلب[22].

4- دور عبد الرحمن الأخضري(ت981هـ/1573م) في تعميم التوجه الجديد: نشأ الأخضري في أسرة علمية تنتمي إلى قرية بنطليوس بالزاب الجزائري، وتربو تآليفه على الثلاثين؛ حيث أصبحت محل دراسات ومناقشات في جامعات العالم الإسلامي كالأزهر والزيتونة والقرويين، إذ أدخلت في برامج التعليم منذ ظهورها، وتولى فطاحل علماء المشرق شرحها والتعليق عليها، ومنها منظومة "القدسية"[23]، وخصص الأخضري القدسية التي تحتوي على 357 بيتا لمتصوفة زمانه، وممّا قال فيهم:

قــد ادعـوا مراتبـا جليلة والشرع قد تجنبوا سبيله.
لم يدخلوا دائرة الطريقة فضلا عن دائرة الحقيقة.

ثم يتعرض للمتصوف الحقيقي فيصفه بقوله:

واعلم بـأن الـولي الربـــاني تابـع السنــة والقـــرآن
وقابل بعض السادة الصوفية مقـالــة جليـلة صفـــيـــة[24]
إذا رأيت رجــلا يطيـــــر أو فوق ماء البحر قد يسير
ولـم يقف عند حدود الشـرع فإنـه مستـدرج وبـــدعي
فارفضه إنمـا الفتى دجـــال ليس له التحقيق والكمال

إلى أن يقول:

آه على طريقة قــد ذهبت وهمت أصـولهـا وقلبت
وهـــاج إفك المـدعـي فيها وصـار من يطلبها سفيها

أهـا على طريـقـــة الكمال أفسدها طائفة الضلال
طريقة أفسدها أهل البدع فتركت مهجورة لا تتبع[25]

تمكن الشيخ الأخضري من تعميم المذهب الجديد عن طريق:

- اختصار التعاليم السلفية في منظومة شعرية يسهل حفظها وفهمها، ونشرها بين عامة الناس.
- العمل على محاربة الإنحرافات التي تسربت إلى التصوف السني، وعقد مفاصلة تامة بينه وبين التصوف البدعي.
- تكوين جيش من الطلبة يسعون لتجسيد تلك التعاليم، ونشرها بين الناس.

ولذلك أشاد الشيخ السلفي عبد الكريم بن الفكون القسنطيني (ت1073هـ/1662م) في كتابه "منشور الهداية في كشف حال من ادّعى العلم والولاية" بمواقف الأخضري، وجعل من قدسيته مرجعا أساسيا لمؤلفه، وذكر أنه من العلماء الذين لا يكتفون بتغيير المنكر بألسنتهم وقلوبهم، بل كان يغيره بيده، ويستعين على ذلك بجيش طلبته[26].

وتميز الفكون في طرحه لموضوع السلفية بمعالجته للتصوف الصحيح، وإشادته بمواقف الصلحاء من أهل زمانه وسابقيه، ثم تعرض لصنفين من المنحرفين: الأول يمثله طائفة من العلماء الذين تولوا المناصب العلمية، ولكن سلوكهم لم يكن مرضيا؛ بحيث لا تتوفر فيهم كفاءة لتولي تلك المناصب، كالقضاء والإفتاء والوزارة، والثاني يمثله منتحلو الرياسة الدينية ومشايخ الطرق الذين يحترفون الدجل والشعوذة.

إن الصورة التي عكسها الفكون عن أحوال أهل البدع والأهواء تؤشر لسيطرة تصوف العوام على حساب تصوف الخواص أثناء الفترة الحديثة في كامل بلاد المغرب الإسلامي أمام تراجع مستوى الفكر والتعليم؛ فاقترن التصوف بالبدعة والإنحراف، وأصبح من العسير الوصول إلى أهل التصوف السني، أمام غياب حركات الإحياء الصوفي، كما كانت عليه في عصر الشيخ زروق.

وظل الشيخ زروق قدوة ومرجعا لدعاة السلفية خلال الفترة الحديثة؛ فقد أشاد الشيخ الفكون القسنطيني بالشيخ زروق الفاسي[27] وبتآليفه، وانفرد الفكون بنشر رسائل خاصة كاتب فيها زروق بعض خواص أصحابه في الموضوع، خصوصا انطباعاته المبنية على مشاهداته في بلدان المغرب الإسلامي، وهي قيّمة جدا ومجهولة تماما[28].

وعلى نهج الأخضري في قدسيته ظهرت في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين تآليف أخرى قيمة في الموضوع؛ كمنظومة عبد الرحمن بن محمد بن علي المجاجي؛ أستاذ سعيد قدورة، وقد نوّه بها الفكون، كما ظهرت بمستغانم منظومة للشيخ محمد بن حواء، من علماء القرن الثاني عشر الهجري، سماها: "سبيكة العقيان فيمن حلّ بمستغانم وأحوازها من الأعيان"، تعرض فيها لتراجم علماء البلاد، ووصف حالة البلاد في عهده، وانتشار البدع، وهي أيضا شبيهة بالقدسية[29].

4- **المنعطف الحاسم في تاريخ السلفية الجزائرية الحديثة**: مع نهاية القرن الثامن عشر الميلادي، وعلى امتداد القرن التاسع عشر الميلادي وحتى بداية القرن العشرين الميلادي طرأت على البلاد الجزائرية تحولات عميقة، أثّرت إلى حدّ ما على سير التيار السلفي، ويمكن حصرها فيما يلي:

- تزعزع كيان السلطة التركية بالجزائر، وانحلال عقدة التحالف بين السلطة وبعض الطرق الصوفية خاصة الدرقاوية والتيجانية، اللتان تزعمتا حركات التمرد ضد السلطة الحاكمة خلال الثلث الأول من القرن التاسع عشر الميلادي.

- بداية تسرب أفكار ورسائل الدعوة السلفية الوهابية المشرقية منذ بداية القرن التاسع عشر الميلادي.

- تعرض الجزائر للاحتلال الفرنسي منذ عام 1830م.

لقد حاولت التيجانية والدرقاوية تصحيح ما طرأ على حركة التصوف من انحرافات ساعية لإحياء النزعة السلفية، ولكن نشاطهما غمرته التطورات السياسية التي ميّزها الصراع القائم بين دايات الجزائر وسلاطين الدولة العلوية بالمغرب الأقصى.

وفي خضّم ذلك الصراع كتب الشيخ محمد بن عبد الله الجلالي- مدير المدرسة المحمدية التي بناها الباي محمد بن عثمان فاتح وهران بمعسكر- رسالة خاصة إلى زميله في الدراسة بفاس الشيخ أحمد التيجاني مؤسس"الطريقة التيجانية، "كاتبه جوابا عن رسالته التي ذكر له فيها أنه فتح عليه بما لم يفتح على من سبقه، وأنه تصدى للتربية، وهو بصدد تأسيس طريقة صوفية؛ فأجابه محمد بن عبد الله الجلالي جوابا مسهبا، ناقشه فيه الحساب إن وجّهت إليه من طرف منتقديه، وحذّره من مغبّتها[30].

ولعلّ مغبّة ذلك توجّس السلطة التركية وتخوفها من أي طريقة جديدة مناهضة للحكم، وبالفعل حدث ما حذّر منه الشيخ الجلالي؛ فقد تمّت مطاردة التيجاني من طرف

الأتراك، إلى أن حلّ بفاس تحت رعاية السلطان سليمان العلوي، كما ألحقت الهزيمة بأحد أبنائه المتمردين بعد ذلك أمام باي وهران.

ومن نتائج حركة المدّ الوهابي في المشرق بعد انتزاعها للحرمين الشريفين من أيدي العثمانيين؛ ظهور أول اتصال بين واحد من رواد السلفية الجزائرية ومجموعة من علماء الوهابية في موسم الحج لعام 1811م، وهو العالم والمؤرخ أبو راس الناصري المعسكري، "الذي لم يقتصر على سلفية مدرسة زروق؛ بل جاوزها إلى سلفية المذهب الوهابي، وذلك أنه اجتمع بالأمير الوهابي في الحجّ، وتذاكر معه بحضور الوفد المغربي الذي كان يرأسه ولي عهد ملك المغرب إذ ذاك"[31].

ولا يفهم من تصريح البوعبدلي في الفقرة الأخيرة المذكورة آنفا أن الشيخ أبي راس قد اقتنع بالمذهب الوهابي، وصار من دعاته في الجزائر كما توهم ذلك الباحث عبد الحليم عويس[32]، وإنما يُحمل ذلك على سبيل الاطلاع، ونقل أخبار المشرق إلى المغرب، والمجال لا يتسع لذكر التفاصيل المتعلقة بتوجه الشيخ الناصري الذي لا يخرج عن المنظومة الأشعرية المالكية الصوفية[33].

وبعد الاحتلال الفرنسي للجزائر تجلت النزعة السلفية في إحياء بعض الطرق الصوفية لفريضة الجهاد ضد المحتل الأجنبي الكافر، كما هو شأن القادرية مع الأمير عبد القادر ومقاومته، والشيخية في مقاومة أولاد سيدي الشيخ، وغيرها من الطرق.

وعلى ذلك أصبحت السلفية الجزائرية تعمل على جبهتين: أولها مقاومة الاستعمار، والثانية محاربة البدع المستحدثة.

ومن أمثلة تلك المواجهة المزدوجة أن الطريقة الرحمانية فضلا عن إعلانها الجهاد ضد الاحتلال، وتحالفها مع مقاومة المقراني؛ فقد سعى شيخها ابن الحداد إلى تأليف رسالة في البدع التي كانت تقترف في عهده، وأنكرها وبرّأ الرحمانية منها[34].

وفي نفس السياق ظهرت حملة ضد البدع بمدينة قسنطينة كان مركزها "نادي صالح باي"؛ حيث ألقى فيه بعد تأسيسه مباشرة الشيخ المولود بن الموهوب سلسلة محاضرات، تولى ترجمتها إلى الفرنسية السيد الشريف ابن حبيلص القاضي الموثق، والنائب السابق بالبرلمان الفرنسي ونشرها، إلا أن هذه الحملة لم تكن تلقائية أو مبنية على عقيدة فيما يظهر، بل كانت متصلة ومرتبطة بخيوط حركتها أو شجّعتها لمقاومة الطريقة الرحمانية، بعد

اندلاع ثورة المقراني وصهره ابن الحداد، وقد كشف النقاب عنها أحد أعضاء لجنة البرلمان التي أرسلت إلى الجزائر تحت رياسة الوزير الفرنسي جول فيري[35].

تلك السياسة الاستعمارية ساهمت إلى حد بعيد مع عوامل أخرى عرفتها الجزائر في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي في تدجين واحتواء معظم الطرق والزوايا الصوفية، ليختفي دورها نسبيا بحلول القرن العشرين الميلادي.

وفي هذا الإطار يرى البوعبدلي ضرورة أن نذكر عالما سلفيا يعد من ضحايا الفكرة السلفية في طورها السابق المتصل بالحرب العالمية الأولى، وقد آثار موقفه أول هزة من نوعها في بلدان المغرب بعد الاحتلال الفرنسي، كان هذا العالم هو صالح بن مهنا، القلي منشأ والقسنطيني مقرا وإقبارا، تخرج من الزيتونة ثم من الأزهر، وبعد رجوعه انتصب للتدريس بمدينة قسنطينة، وكان أحد علماء البلاد أي من القطاع القسنطيني يدعى أحمد بن دادا المشهور بـ"أبي الهدى" تخرج من القرويين، وألّف رسالة سماها "ضوء الشمس"، نوّه فيها بالأشراف، ولربما بالغ في ذلك؛ فلما اطّلع عليها صالح بن مهنا ردّ عليه مبالغاته، ووضع الأمر في نصابه في تأليف سماه " تنبيه المغترين في الردّ على إخوان الشياطين"[36].

تصدى للردّ على ابن مهنا غير واحد من معاصريه، ولعلّ أكثرهم شهرة شيخ الإسلام بالديار المغربية المؤلف الشهير الشيخ المهدي الوزاني؛ الذي جاء إلى قسنطينة سنة 1323هـ /1905م، واطلع على تعاليق ابن مهنا، وخصها بتأليف سماه "السيف المسلول باليد اليمنى لقطع راس ابن مهنا"، وقد أخفى الشيخ الوزاني الظروف التي جاء من أجلها إلى قسنطينة، وإنما ذكر أنه ورد إليها عابر سبيل، واتصل بعلمائها فأطلعوه على ما ذكر[37].

بهذه المعركة الكلامية ختم الشيخ البوعبدلي حديثة عن أطوار السلفية في الجزائر، ولكنه وضعنا أمام حادثين هامين يمكن من خلالهما معالجة موضوع السلفية الجزائرية في الفترة المتبقية من القرن العشرين حيث يقول الشيخ البوعبدلي: "... هذه خلاصة أطوار السلفية بالجزائر، وقد تركنا الحديث عن حادثين هامين يتعلقان بصميم الموضوع هما زيارة الشيخ محمد عبده إلى الجزائر في أوائل القرن الجاري، واتصاله بكثير من علمائها، وآثار تلك الزيارة التي خصّها العالم الأديب عبد الحليم بن سماية برسالة قيمة...، والثاني معركة أو محاورة أثارها عالمان جزائريان قبل زيارة الشيخ محمد عبده بقليل، انتصرا لـ"محمد صديق خان بها درامير هوبال الهندي"، وقرّظا كتابه "الروضة الندية"؛ فلامهما على ذلك مفتي المدينة المنورة الشيخ عثمان بن عبد السلام الداغستاني؛ إذ كان محمد صديق خان

الهندي من أنصار السلفية الوهابية، وتبادل معهما رسائل هامة في موضوع السلفية، والعالمان الجزائريان هما: الشيخ الجيلالي بن المنور المجاجي والشيخ أحمد بن يحي الشراطي الاصنامي؛ إلا أن هذا الحوار كان في منطقة محدودة، ولكن له وزنه خصوصا في تلك العهود..."[38].

يبدو من الكلمة الختامية للبوعبدلي أن السلفية الجزائرية مع بداية القرن العشرين الميلادي دخلت مرحلة متميزة وخطيرة، بتفاعلها مع حركات الإصلاح المشرقية سواء منها السلفية التنويرية بزعامة الشيخ محمد عبده، أو السلفية الوهابية التي عرفت تحولات عميقة في عهد الملك السعودي عبد العزيز آل سعود.

الخاتمة: لقد وضعنا الشيخ البوعبدلي أمام الأطوار الأساسية للسلفية الجزائرية منذ القرن8هـ/14م؛ وحتى القرن 14هـ/20م دون أن يتعرض لتفاصيل كل طور من الأطوار، ولكنه وضع خطة منهجية تمكن الباحثين من تحقيق انطلاقة للخوض في غمار هذا الموضوع الشائك، وعلى العموم يمكن حصر الأفكار التي عالج من خلالها البوعبدلي موضوع السلفية في الجزائر فيما يلي:

- الجدل ظل قائما في كل المراحل بين مناصري التصوف ومنتقديه.
- إن مؤسسي السلفية الجزائرية هم الذين جمعوا بين التصوف السني والسلفية المنضبطة بالمذهب المالكي والعقيدة الأشعرية، التي يعتبرها أهل المغرب الإسلامي على العموم عقيدة أهل السنة والجماعة.
- إن انتشار تصوف العوام ألحق مفاسد خطيرة بالتصوف الجزائري؛ مما مكن بين الحين والآخر السلفية المشرقية لتنتصب كحركة موازية للسلفية الجزائرية.
- انفتاح السلفية الجزائرية منذ نهاية القرن التاسع عشر الميلادي وبداية القرن العشرين الميلادي على السلفية المشرقية برافديها التقليدي والتنويري، ممّا كان له بالغ الأثر في ظهور الحركة الإصلاحية الجزائرية الحديثة.

الهوامش:

1- البوعبدلي المهدي، عبد الرحمان الأخضري وأطوار السلفية في الجزائر، الأصالة، مجلة ثقافية شهرية تصدر عن وزارة الشؤون الدينية الجزائرية، الجزائر، العدد 53، 1978م، ص21.----2- كنون، عبد الله (1908- 1989)، الحركة السلفية المغربية وتأثيرها على سير الحركة الوطنية ضمن موضوع مدخل إلى تاريخ المغرب الحديث من عصر الحسن الأول إلى عصر جلالة الملك الحسن الثاني، إشراف عبد الحق المريني، وزارة الشؤون الثقافية، المملكة المغربية، مركز الدراسات والبحوث العلوية، دار المناهل، الرباط، د-ت، ص399 .----3- رواه البخاري ومسلم وأحمد عن ابن مسعود، ينظر المرجع نفسه، ص399 .

4- للمزيد من التفاصيل حول هذه الإشكالية ينظر: السبحاني جعفر، السلفية تاريخا ومفهوما وهدفا، ط1، نشر مؤسسة الإمام الصادق، 1431هـ، صص15- 21 .----5- للمزيد من التفاصيل حول الإشكالات التي يطرحها مصطلح السلفية ينظر : أبو اللوز عبد الحكيم، الحركات

السلفية في المغرب (1971-2004) - بحث انثروبولوجي سوسيولوجي- ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، نوفمبر 2009م، ص38- 39. --6- البوعبدلي، المرجع السابق، ص21-22.

7- لم يعرف المغرب الإسلامي ذلك الجدل العقدي طوال فترة حكم الأدارسة والمرابطين، أي خلال القرون الأربعة الأولى، إلى أوائل القرن السادس الهجري، حينما جاء المهدي بن تومرت مؤسس دولة الموحدين فنقل مذهب الأشاعرة من المشرق إلى المغرب، ولما ثار على المرابطين جعل الأشعرية من عناصر دعوته، وصار يتهم المرابطين بالتجسيم ويكفرهم. وسعى أتباعه بالموحدين زعما بأن عقيدتهم سالمة من الإيهام، فانتشرت بالدعوة والإلزام، ومنذ ذلك الحين والأشعرية منتشرة في المغرب، وتعتبر كالمذهب الرسمي في العقيدة كسائر العالم الإسلامي، "إلا أن العلماء وهذه شهادة لله كانوا دائما يصرحون بأنهم على مذاهب السلف." كنون عبد الله، المرجع السابق، ص401.----8- البوعبدلي، المرجع السابق، ص22.----9- المرجع نفسه، ص23.

10- الكثيري محمد، السلفية بين أهل السنة والامامية، ط2، مؤسسة الغدير، بيروت، 1429هـ/2008م، صص213- 217.

11- هو الشيخ أبو عبد الله محمد ابن مرزوق الحفيد العجيسي (766-842هـ/1364-1439م). يحي بوعزيز، مدينة تلمسان عاصمة المغرب الأوسط، دار الغرب للنشر والتوزيع، 1424هـ/2003م، صص125- 134.----12- هو القاضي أبو العباس أحمد بن قاسم العقباني (ت840هـ/1437م). المرجع نفسه، ص153.

13- عاش ما بين 830- 895 هـ، أحد مؤسسي أهل السنة والجماعة في الغرب الإسلامي، أي مذهب الأشاعرة من خلال مؤلفاته العديدة في التوحيد وعلم الكلام، لمعرفة المزيد عن ترجمته وفكره وموقفه من قضايا عصره لا سيما أفكار أبي الحسن الصغير ينظر مؤلفه: شرح السنوسية الكبرى، تحقيق أبو أحمد بلكرد بوكعبر، دار البصائر، الجزائر،2011م، صص17- 170.

14- جمع فتاويه في هذا الصدد الباحث أحمد علي الكندي المرر بكتاب: الفتوى المالكية في أفعال الصوفية، مؤسسة بينونة للنشر والتوزيع، الإمارات العربية المتحدة، 1430هـ/2009م، صص3 - 26.----15- البوعبدلي، المرجع السابق، ص23.

16- المرجع نفسه، ص24.----17- من أكثر المستشرقين اهتماما بذلك نجد الفرنسي (هنري لاووست)، الذي تخصص في دراسة السلفية قديما وحديثا، خاصة ما يتعلق بسلفية ابن تيمية، وما أثارته من جدل. ينظر كتابه : نظريات شيخ الإسلام ابن تيمية في السياسية والاجتماع، ترجمة محمد عبد العظيم علي، تقديم وتعليق مصطفى حلمي، دار الأنصار، القاهرة، د-ت.

18- كانت حركته الإصلاحية الصوفية محل دراسات عديدة مثل الدراسة التي أنجزها: نجمي عبد الله، بين زروق ولوثر في الإصلاح الديني والعصور الحديثة، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، السلسلة رقم 69 بعنوان: الرباطات والزوايا في تاريخ المغرب، مطبعة دار النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1997م، صص77- 120.----19- حققه عبد المجيد خيالي، ط2، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية،بيروت، 1426هـ/ 2005م،في 175 صفحة.----20- البوعبدلي، المرجع السابق، ص 24.

21- المرجع نفسه، ص25.----22- المرجع نفسه.----23- المرجع نفسه.----24-المرجع نفسه، ص26.----25- المرجع نفسه، ص27.

26- الفكون، عبد الكريم، منشور الهداية في كشف حال من ادّعى العلم والولاية، تحقيق أبو القاسم سعد الله، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1987م. ص 117. ----27- ينظر المصدر نفسه، صص143- 186.----28- البوعبدلي، المرجع السابق، ص29.

29- المرجع نفسه، ص30.----30- المرجع نفسه.----31- المرجع نفسه. ينظر تفاصيل مناظرة الشيخ أبي راس في رحلته: فتح الإله ومنّته في التّحدث بفضل ربي ونعمته، تحقيق محمد بن عبد الكريم الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990، ص118- 119.

32- بقوله: « وكان أول من حمل الدعوة – الوهابية - إلى الجزائر المؤرخ الجزائري أبو راس الناصري،الذي قدر له أن يجتمع بتلامذة الإمام محمد بن عبد الوهاب في موسم الحج، ويذاكرهم في أمور انتهى بعدها إلى الاقتناع باتجاه حركة الشيخ ابن عبد الوهاب، وكان ذلك بحضور وفد الحجيج المغربي الذي كان يرأسه ولي عهد المغرب آنذاك. وقد أشاد المؤرخ أبو راس بآراء ابن عبد الوهاب عندما دون تفاصيل رحلته للحج بعد عودته إلى الجزائر.» ينظر: عويس عبد الحليم، أثر دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب في الفكر الإسلامي الإصلاحي بالجزائر، ط1، مكتبة ابن تيمية، المحرق، البحرين، 1405 هـ /1985م،ص، 13.

33- ينظر: فقيقي محمد الكبير، الحركة الوهابية في كتابات المغاربة (1157- 1364هـ/1745- 1945م)، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، 2014-2015م، ص69- 70.----34- البوعبدلي، المرجع السابق، ص30.----35- المرجع نفسه، ص31.----36- المرجع نفسه، ص32.----37- المرجع نفسه، ص33.----38- المرجع نفسه، ص35.